15- إشكاليات تحليل الخطاب :

إن أي علم يرتبط نجاحه خصوصا بتحديده للموضوع ، و تحليل الخطاب يعاني من هذا بسبب علاقته الوطيدة باللسانيات ، و لقد أكد على هذه العلاقة هاريس و بنفنيست عندما اختزلا الخطاب في موضوع السانيات، و تحديده كتقاطع بسيط و خطي للجمل، وهناك من الدارسين من يعترض على أن يكون تحليل الخطاب علما لسانيا .

إن المشكلة الرئيسية التي لازمت تحليل الخطاب هي تحديد موضوعه الذي ظل يتردد حول المفهوم نفسه (الخطاب)، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت تخصصات تدعي أنّ الخطاب موضوعها الرئيس بامتياز، و هذا مشكل ثان إذ إن الخطاب و تحليل الخطاب سيصبحان أهلا لكل المجالات و الاختصاصات .و يشير دومنيك مونجينيو إلى أهم القضايا التي يثيرها تحليل الخطاب ، و هي :

1- استعارة أدواته من مجالات عديدة مثل الدلالة و التلفظ .

2- مفهوم الخطاب فنحن إزاء أكثر من أربعة تعريفات و هذا يطرح صعوبة تحديده لموضوعه.

3- اختلاف المنطلقات الفكرية لدارسي الخطاب و تحليله، و تباعد مجالات اختصاصهم، ف" لايتسنى في باب البحث أن نفكر كما لو كان الأمر يتعلق بتوحيد موازين أو مقاييس، فليس المشكل مشكل مصطلحات فقط، فهو يمس أيضا المقتضيات التي تقوم عليها الأبحاث ، فالأبحاث في تحليل الخطاب لا تنمو في القارة الأوروبية ، و بصفة أخص في فرنسا في التربة التي تنمو فيها في مناطق أخرى من العالم فهو – أي تحليل الخطاب – يقوم فيها ، و في الآن نفسه على تقاليد في دراسة النصوص طويلة تركت فيها البلاغة ، و الهرمينوطيقا الأدبية أو الدينية ، وفقه اللغة آثارا عميقة ، و على تاريخ أقل منها طولا بكثير، تاريخ العلوم الإنسانية و الاجتماعية وعلم النفس التحليلي أو الفلسفة . و تطور الأبحاث في تحليل الخطاب يغنم غنما كبيرا من المواجهة التي تحصل بين تمشيات تنتمي إلى عوالم نظرية متنوعة" [1].

[1] - المرجع السابق: ص9.

4– قضية اشتراك المصطلح الواحد بين أكثر من ميدان، و هي من أكبر المشاكل التي واجهها أصحاب معجم تحليل الخطاب ، يقولان :" و من البديهي أنه سرعان ما تبين لنا أن بعض المصطلحات كانت وقفا على ميدان من الميادين ...و أن بعضها الآخر كان مشتركا بين ميادين كثيرة ، و إنْ بمعان مختلفة (أرشيف ، الاستهواء)، في حين يمكنك اعتبار قسم آخر منها مخترقا ميادين عديدة (خطاب، ملفوظ، جنس)، و لذلك كان علينا حتى نتجنب كثرة التشتت أو الوقوع في التكرار، و الإعادة أن نوزع المسائل توزيعا متوازنا ، و أن نحتفظ لأنفسنا بأكثر الألفاظ المخترقة ، و العمل أحيانا ، و في المدخل الواحد على وضع أكثر من تعريف وجها لوجه "[2].

و قاد هذا الإشكال دومنيك مانغونو و بارتريك شارودو إلى إتباع منهجية تجعل الدارس متبصرا لهذه المعضلة ، يقولان في المعجم: " و من ثم نجد في هذا الكتاب مجموعتين فرعيتين من المصطلحات : مجموعة أولى، وهي الأهم إلى حد بعيد ، تشتمل على المصطلحات التي ظهرت في العقود الأخيرة في أعمال موضوعها الخطاب (أدوار الكلام) تشكل خطابي ، عمل لغوي ، داخل الخطاب ن الخ) . والمجموعة الثانية تتكون من المصطلحات التي برزت ضمن إشكاليات ، أو فنون مجاورة (العائد، إعادة الصياغة ، وجوه بلاغية ، حجة الخ) ، و لكنها عولجت من زاوية تحليل الخطاب، لا بالكيفية التي قد يكون نظر إليها منها في معجم يتصل باللسانيات، أو البلاغة، أو علم الاجتماع .. زد على ذلك إننا لم نورد مداخل متصلة بأصناف من المدونات كالوسائط ، و الخطاب الديني أو المدرسي ، و لا بأجناس خطاب كالمنشور السياسي، أو العيادات الطبية أو نشرة الأخبار التلفزية ... و من ثم و أمام استحالة الانتهاء إلى شبكة مصطلحات تزعم الإحاطة بالأبحاث التجريبية المتنوعة تنوعا لا ينتهي ، أردنا أن نضع مصنفا معقول الحجم في استطاعته أن يوفر الرواسب النظرية و المنهجية "[3].

– تعدد المفاهيم للمصطلح الواحد :" أما في ما يخص معالجة الحدود فقد كان علينا حل مشكل من نوع آخر، فمن النادر أن تكون المفاهيم في مجال تحليل الخطاب ، أحادية الدلالة فللمصطلح الواحد إجمالا عدة معان يصعب التمييز بينها لمن ليست له في هذا النوع من

---

[2] -المرجع نفسه : ص10.

[3] - المرجع نفسه: ص12.

البحث تجربة . فكيف و الحال ما ذكرنا. نبرز جملة من الحدود دون أن نقع في عرض مطول لمختلف النظريات التي ينخرط فيها و هو ما كان يجعل هذا المعجم في غاية التشابك (....) و لذلك اخترنا أن نعرض للمصطلح الواحد مختلف الاستعمالات بالرجوع إلى مختلف المؤلفين الذين قدموا في شأنه تحديدا من غير أن نزهد ، مع ذلك، في إعطاء هذه المفاهيم الوجهة التي اخترنا، و لم يمنع هذا الصنيع من أنّ من المداخل ما يُغلِّب بصفة واضحة المنظور النظري، و منها ما يلح أكثر على إحصاء الاستعمالات " [4].

و قد توقف النقد العربي عند هذه الإشكالية التي رأينا ان نبرزها في هذا الموضع و بهذا الشكل :إذن من القضايا التي تعوق تحديد مفهوم دقيق للخطاب هو تداخله مع مصطلحات من قبيل النص والقول. تقول يمنى العيد :" و نحن اليوم أيضا نقول : قول شعري ، وحسب البعض خطاب شعري مقابل قولنا : قول أو خطاب سياسي ، و قول ، أو خطاب سردي، و قول ، أو خطاب تشريعي الخ مشيرين بذلك إلى جذر مشترك ، هو القول أو الخطاب مضيفين إلى هذا الجذر المشترك صفة الشعري ، أو السياسي، أو غير ذلك. مما يدل على تخصيص للقول أو للخطاب كأن للقول وجودا عاما أو سديميا أو وجودا على مستوى الحاجة لإنسان يعيش في زمان تاريخي، و في مكان اجتماعي، و من على هذا المستوى يتخصص القول في أجناس لها حقولها الثقافية المتميزة "[5]

لكنها ما تلبث أن تعمد إلى تمييز القول عن الكلام و الخطاب و النص " و عليه فإذا كان الكلام هو ما له صفة الفوضوي و المتوحش، و إذا كان الخطاب هو التوجه إلى آخر بمرسلة فإن القول هو ربما إضافة إلى هذا كله نبرة كتلة نطقية لها طابع الفوضى، و حرارة النفس، و رغبة النطق بشيىء بقول ليس هو تماما الجملة، و لا هو تماما النص بل هو فعل يريد أن يقول " [6].

---

[4] - المرجع السابق ، 12 .

[5] - يمنى العيد ، في القول الشعري ، دارتوبقال ،الدرا البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1987، ص12.

[6] - المرجع نفسه:ص10

وخلاصة القول إنه " فاعلية يمارسها متكلم يعيش في مكان اجتماعي، وفي زمان تاريخي، وهو من حيث هو كذلك ذو طابع تناقضي، هذا الطابع هو نفسه طابع العلاقات الاجتماعية بين الناس في المجتمع "[7].

إن اشتغال يمنى العيد على الشعر هو الذي دفعها إلى التمييز بين المصطلحات الثلاثة، ثمّ أنها تحاول تحديد المفاهيم التي يصير بها القول شعريا .

إذن، فليس تعريف يمنى العيد لسانيا بمقدار ما هو بلاغي، إذ لا تستند إلى المفهوم الحديث أو الخطاب إلا على مستوى العرض، ولكنها حين تقترح تحديدا فإنه ينبني على معرفتها اللغوية العامة و حسب [8].

و إذا رجعنا إلى النقد العربي القديم وجدناهم يفرقون بين اللفظ و القول، و ذلك حين قال الجرجاني : "إذا قيل لك إمرؤ القيس قائل هذا الشعر من أين جعلته قائلا له ... و ذلك ما لا سبيل إليه "[9]

فالتلفظ هنا ليس القول و إلا لكان راوي الشعر قائلا له ، و ليس الأمر كذلك " أما القول فهو ينطبق على منشئ الكلام دون راويه أو ناقله ، لذلك يمكن أن نقول كما قالوا : " كل قول لفظ لكنه لا ينعكس إذ ليس كل لفظ قولا . فالقول يقتضي بداية النشأة و به يكتسب الكلام اختصاصه بقائله"[10] .

فاللفظ بذلك يحتوي القول ، و القول يحتوي الجملة، و الجملة تحتوي الكلام فعلاقة القول باللفظ و الجملة و الكلام، هي علاقة احتواء الجنس للنوع .

كما يميز العرب الكلام عن القول ، نحو ابن جني حينما يقول: " و قد ثبت بما شرحناه ، وأوضحناه أن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها، و التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها ، و ثبت أن القول عندنا

---

[7] - المرجع نفسه: ص10 .

[8] - مهى محمود ابراهيم العتوم : تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث دراسة مقارنة في النظرية و المنهج ص27.

[9] - الجرجاني : دلائل الإعجاز، تح عبد المنعم الخفاجي ، مكتبة القاهرة ،القاهرة ، مصر، دط ، 1969، ص272.

[10] - محمد الشاوش : أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية الع مج ، المؤسسة العربية للتوزيع ، تونس ، ط1 ، 2001، ص618.

أوسع من الكلام تصرفا و أنه قد يقع على الجزء الواحد ، و على الجملة، و على ما هو اعتقاد ، و رأي لا لفظ و جرس "[11]

فالعلاقة بين القول و الكلام ليست علاقة ترادف ، وإنما علاقة الخاص بالعام، فالكلام هو العام والقول يمثل الخاص . و هذا تمييز يسبق به ابن جني علم اللغة الحديث في تحديد الكلام ، و علاقته بالقول ، و يسبق ثنائية دي سوسير الشهيرة (اللغة / الكلام) ، و ما انبنت عليها من ثنائيات أخرى تحدد العلاقة بين الكلام و الخطاب و النص.

والقول عند العرب لا يحتاج المرء إلى نطقه كالكلام، و إذا كان الكلام لا يقتضي ترتيبا وتناسبا و تناسقا، فالقول على العكس من ذلك . لكن ما علاقة القول بالخطاب بناء على ذلك ؟ وهل هما مترادفان ؟ إن القول لا يتوفر على عناصر الرسالة اللغوية كما عمل على تحديدها دي سوسير و جاكبسون بعده ، و يمكن أن يكون القول متوجها من مرسل حاملا لرسالة دون تحديد الطرف الثالث الأكثر أهمية في علم اللغة الحديث، و في الدرس النقدي المعاصر ، أما الخطاب فإنه يقتضي هذا الطرف و يستوجب وجوده . و إذا كان الخطاب لا يتم فهمه و تحصيله إلاّ بقارئ فإن القول يحمل رسالته بذاته أو لا و بقائله ثانيا ، و بالتالي فإن الخطاب أوسع دلالة من القول، و ليست هنا علاقة ترادف ، و لا علاقة احتواء بل يمكن القول إنها علاقة امتداد، فالقول يمتد إلى خطاب و ليس العكس ، و أما تمام الدلالة و المعنى فلا يكون إلا بالنص .

5–النتيجة المنطقية لكل هذه الإشكالات من منظور أصحاب معجم تحليل الخطاب هي صعوبة إنجاز دراسة في تحليل الخطاب بالنظر إلى القضايا و الإشكالات المطروحة " و لا مجال للشك في أن تبرير وجود في الخطاب أعسر جدا من تبرير أبحاث في اللغة و الأدب و علم

[11] - ابن جني : الخصائص، ج1، تح: محمد على النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ،مصر، ط2 ، 1952، ص32.

الـنفس و المجتمـع و التـاريخ ، إلا أن الأبحـاث في تحليـل الخطـاب ليسـت ثمـرة بعـض العقـول المستطرفة إنها الشـاهد على التحـول العميـق في علاقـة مجتمعنـا بملفوظاتـه الحاضـرة و السـابقة "[12].

يمكننـا أن نختـم هـذا الموضـوع الشـائك بقـول لسـارة ميلـز استشـعرت فيـه صـعوبة ولـوج الخطاب و تحليله، تقول : " و ما يجعل عملية تعريف الخطاب أعقد كما أشرنا من قبل هو أن أغلب المفكرين لا يحددون في استخدامهم المصطلح ،أي هذه المعاني يقصدون ، كما أن أغلب المفكرين يعدلون حتى في هذه التعريفات الأساسية"[13]

---

[12] - المرجع نفسه : ص13.

[13] -سارة ميلز: الخطاب ، ترجمة عبد الوهاب علوب ، ص13.